رحلة في شعر علي بن أبي طالب رضي الله عنه

الدكتور سامر مظهر قنطقجي

لقد تناثرت درر الفقهاء والعلماء الأجلاء في بطون كتبهم بسجع أدبي رائع الجمال لم نعتد أن نرى وصفا مالياً مثيلاً له، فقد تعاملنا مع الأحداث المالية وتفسيراتها وآثارها على شكل قوائم وجداول وأرقام صماء غالباً ما تحتاج لشرح وتفسير يصعب على غير المختص الولوج في ثناياها.

لكن أبيات الشعر التالية التي قالها الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في ديوانه (دار كرم بدمشق، ص ٣٨) موجزاً مخاطر الإنفاق الاستهلاكي الممول من الاقتراض أوضحت تطور الفكر المالي في زمانه الذي تميز بالجزالة اللغوية أيضاً. يقول رضي الله عنه:

إذا شئت أن تستقرض المال مُنفقاً ... على شهوات النفس في زمن العُمر

فسلْ نفسك الإنفاق من كنز صبرها ... عليك وإنظاراً إلى زمن اليُسر

فإن سمحَت كنت الغني وإن أبت ... فكل منوعٍ بعدها واسع العُذر

بيّن رضي الله أن الإنفاق أمرٌ لا غنى عنه لكل إنسان وهو سلوكٌ لا مفرّ منه خلال مسيرة عمره وحياته، فقسم الإنفاق إلى صنفين أساسيين هما: الإنفاق الضروري أو الأساسي الذي يحركه باعث الحاجة، والإنفاق الاستهلاكي أو الترفي الذي محركه وباعثه الشهوة.

ثم بيّن رضي الله عنه أن الإنفاق يحتاج التمويل، وقد تضمن شعره أن التمويل داخلي وخارجي، لذلك سعى إلى تقويم الاختيارات المالية التي مصدرها الاقتراض الخارجي فقال مخاطباً كل فرد: إنك إن عودت نفسك على الاستقراض من أجل الإنفاق الاستهلاكي خلال مسيرة عمرك فإن ما يحدث لك من مخاطر جرّاء ذلك لا عذر لك فيه.

ويكون تقويم السلوك الفردي برأي علي رضي الله عنه بأمرين، الأول بالصبر على الحاجات وخاصة الاستهلاكية منها فالحاجات هي أعلى من الضروريات وأقل من التحسينيات والكماليات في سلم الحاجات (الشرعية). والثاني بتحمل الضيق والعوز المالي لأنه دور من دورات الاقتصاد التي تمر على الإنسان في حياته، وقد قسمها رضي الله عنه إلى دورات ضيق مالي، ودورات يُسر مالي أسوة بما نقول عنه دورات الكساد والرواج. أما السياسة التي أوصى بها فهي شد الأحزمة وخفض النفقات بديلاً عن الاستقراض خشية الوقوع في آثامه ومخاطره خاصة إن كان لشؤون الحاجات الاستهلاكية.

إن الفرد الذي يُلزم نفسه تلك الوصايا هي نفس طيبة الأخلاق تأبى الدين لما فيه من ذلّ وضيم، وبتعميم سلوك الفرد على مجمل أفراد الاقتصاد المحلي، يُمكن إسقاط تلك النصائح على الاقتصاد الكلي لاعتبار نفس النتائج.

لذلك ليس الاقتصاد وقواعده وليد العصور المتأخرة، كما أن الاقتصاديين الأفذاذ لا ينتمون للقرون التي نحن فيها فقط، لكن لعل ضعف القراءة والاطلاع وسوء القدرة على التفسير هي الأكثر تسبباً في تتبع أحداث وتاريخ الوقائع الاقتصادية.